المحاضرة الخامسة:

سياسة الترجمة والتفكيك في الخطاب الثقافي المعاصر:

تمهيد:

شكل مبحث الترجمة أحد أهم المواضيع التي أولت لها الدراسات الثقافية أهمية بالغة، والحقيقة أن علاقة تبادلية إلى حد ما نشأت في الاتجاهين، حيث برزت الترجمة كحقل مهم يمكن من خلاله اختبار مقولات الدراسات الثقافية، وبالمقابل فإن هذه الأخيرة استلهمت من حقل الترجمة الكثير من المشكلات البحثية المهمة، خصوصا في ظل التبادلات الثقافية المتشعبة التي سهلتها العولمة وتقنيات الاتصال، بحيث أصبح العالم بالفعل قرية صغيرة لا حدود سياسية ولا انكسارات ثقافية بين ربوعها.

إن أول ما ينصرف إلى ذهن الإنسان عندما يسمع كلمة ترجمة هو البحث داخل القاموس عن مصطلحات ترادف ما يتضمنه النص المترجم من مصطلحات موازية، وهذا وإن كان صحيحا فإنه لا يعطي صورة كاملة عما يقتضيه عمل المترجم في الأصل. إن المفهوم الشائع للترجمة باعتبارها نقلا حرفيا لنص من لغة إلى أخرى لا يمثل سوى قمة الجبل التي تظهر عادة لمن ينظر من بعيد، بينما التعمق في فهم وظيفة الترجمة يقترب أكثر من التركيب الكامل للجبل، والبحث في سفوحه وقيعانه عن الكثير من الرهانات.

في سياق الحديث عن الثقافة وتنقلها خارج أسوار المنتمين لها، تلقى على عاتق المترجم الكثير من المسؤوليات، إنه لم يعد مجرّد مشتغل على القواميس والألفاظ، بل أصبح أقرب لسفير للمعنى، يحاول قدر الإمكان أن يضمن للآخر فهما عميقا وأصيلا لما يريد النص قوله، لهذا كان جاك ديريدا يصف الترجمة بأنها شيء خطير، فهي مسؤولية لا على النص فقط بل على الهوية وعلى الثقافة بأكملها، لا من حيث أنها قد تلغيها فقط، بل قد تشوهها وتنقلها إلى الآخر بشكل خاطئ، وقد ينجم عن ذلك الكثير من المشكلات في الواقع. إن مكمن الخطورة في مهمة الترجمة هي أن تخفق في أن تكون أداة للتواصل والتفاهم بين الثقافات المختلفة، وأن تعجز عن أن تفسر لماذا يختلف البشر عن بعضهم.

1- في مفهوم الترجمة وتشابكاتها الثقافية:

لقد لعبت الترجمة دورا مهما في تواصل الثقافات والشعوب لأنها ليست كما هو شائع نقلا من لغة إلى لغة، بل نقل من ثقافة إلى ثقافة[1]. قد يبدو هذا القول عصيا على الاستيعاب إذا ما بقي البحث محصورا على المفهوم الشائع، إذ غالبا ما كانت الترجمة تعرف على أنها نوع من الوساطة اللغوية التي يكون المطلوب فيها هو نقل المعنى من لغة إلى لغة أخرى[2].

هكذا تعود المشتغلون على الترجمة كمهنة تعريفها، وذلك على الرغم من أنها تنتمي في الأصل لحقل السيميولوجيا، لا لحقل الألسنيات فحسب، فالترجمة تتعدى في مفهومها نقل المعنى من إشارات لغة ما إلى إشارات لغة أخرى، بل تتطلب أكثر من ذلك معايير ما وراء لغوية metalinguistic لكي تتحقق كعملية كاملة[3]، ويواصل جورج مونان في السياق ذاته مبرزا بأن الترجمة هي جملة من العمليات التي تكون بدايتها ونهايتها هي البحث عن دلالات لها وظيفتها في ثقافة ما[4]، وليس وظائف داخل قواعد اللغة فقط.

إن الترجمة بناء على هذا تتجاوز مهارات استخدام القاموس واحترام القواعد النحوية للغتين محلّ النشاط، إلى مهارات أوسع يمكن تلخيصها في "اجتثاث نص من محيطه الطبيعي وإعادة زرعه في محيط لغوي وثقافي غريب، إن المترجم يقوم بمحاولة بطولية بقلع النص وزرع معناه الهشّ في بيئة أخرى، ولهذا تبدو الترجمة غير طبيعية على الإطلاق.. بل عملية مستحيلة"[5].

هكذا إذن ترتسم معالم علاقة قوية ووثيقة بين الترجمة والثقافة، فيستحيل كل فعل ترجمة إلى فعل ثقافي بالضرورة، غير أن هذا الفعل لا يبدو بالرتابة أو الآلية التي يتخيلها البعض، بل هو مفعم بالتعقيد والغموض، فبقدر ما تكون وظيفة الترجمة تواصلية واضحة، فإنها قد تقفز إلى النقيض من ذلك. "إن الترجمة تضعنا على حافة المعارف لتمتحننا فتتصدع لغتنا وترتجّ ثقافتنا، وننتقل من موقع اليقين إلى الارتباك والشك... إنها توسّع أفق معرفتنا وممكنات لغتنا وتتلاقح ثقافتنا مع غيرها... إن مهمتها كما يقول عبد السلام بنعبد العالي هي توليد القرابة واستبعاد الغرابة [6].

---

[1]- إبراهيم أولحيان: الترجمة: المثاقفة وسؤال الهوية الثقافية. في: مجاب الإمام ومحمد عبد العزيز (مشرفين): الترجمة وإشكاليات المثاقفة، ج1، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، 2014، ص 249.

2- ألبرت نيوبرت وغريغوري شريف: الترجمة وعلوم النص، ترجمة: محي الدين حميدي، منشورات جامعة الملك سعود، الرياض، 2008، ص 1.

3- سوزان باسنت: دراسات الترجمة، ترجمة: فؤاد عبد المطلب، منشورات الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق، 2012، ص 37.

4- سوزان باسنت: المرجع نفسه، ص 39.

5- ألبرت نيوبرت وغريغوري شريف: مرجع سابق، ص 2.

[6]- إبراهيم أولحيان: مرجع سابق ، ص ص 247-248.

يمكن، بل يتحتم، أن يتم البحث عن هذه القرابة داخل اللغة والثقافة نفسها، وليس فقط بين اللغات والثقافات المختلفة، فهنا يرشدنا رومان جاكوبسون إلى أن الترجمة أنواع ومنها الترجمة داخل اللغة الواحدة، أو إعادة الصياغة newording، فأحيانا يحتاج التواصل السليم داخل الثقافة الواحدة إلى البحث عن صيغ أخرى للقول[1]. إذا كان للترجمة دور داخل اللغة والثقافة ذاتها، فإن هذا الدور يتعاظم أهمية حين الانتقال بين اللغات والثقافات، أين تكون رؤى العالم مختلفة، وخلفها يبدو حجم الاختلاف بين البشر كبيرا جدا.

2- المثاقفة والتلقي ورهانات الترجمة:

غالبا ما يرجع إطلاق مصطلح المثاقفة أو التثاقف Acculturation إلى فعل الاحتكاك الذي يقع بين الثقافات، وهذا الاحتكاك حتمي منذ الأزل، حيث كان يتم فيما مضى ضمن نطاقات جغرافية ضيقة، وأصبح نطاقه اليوم أوسع بكثير بسبب العولمة وتقدم تكنولوجيا الاتصال، إذ أضحى عالميا وكونيا.

ويختلط مفهوم المثاقفة مع مفاهيم أخرى على غرار التبادل الثقافي أو العبور الثقافي، غير أنه ذو خصوصية مفاهيمية تجعله مختلفا عن هذه المفاهيم. فقد أفضى النشاط المكثف لمجمع البحوث في العلوم الاجتماعية الأمريكي تحت قيادة كل من روبرت ريدفيلد ورالف لنتون إلى إصدار ما اصطلح على تسميته بـ"مذكرة لدراسة المثاقفة" إلى اعتماد مفهوم للمثاقفة باعتبارها تشمل جميع الظواهر الناتجة عن الاتصال المستمر والمباشر بين أفراد ينتمون لثقافتين مختلفتين، وما يترتب عن ذلك من تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية عند إحداهما أو كليهما"[2].

أما الباحث الاجتماعي الفرنسي ميشال دو كوستر فيعرف المثاقفة بأنها "مجموع التفاعلات التي تحدث نتيجة شكل من أشكال الاتصال بين الثقافات المختلفة، حيث تفضي هذه التفاعلات إلى مخرجات متنوعة كالتأثير والتأثر والحوار والرفض والتمثل[3].

كما ذكرنا سابقا فإن المثاقفة مختلفة كسيرورة عن التبادل الثقافي أو المفاهيم الأخرى، فهذه السيرورة تحمل في طياتها الكثير من الظواهر الثقافية المختلفة التي قد تنتظم في شكل مراحل أو قد تنقطع عن بعضها البعض في نقاط معينة. والمثاقفة محكوم عليه بالمرور بعدة عمليات أبرزها

1- أمبارو أورتادو أمبير: الترجمة ونظرياتها، ترجمة: علي إبراهيم المنوفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2007، ص 32.

2- سارة بوزرزور: الترجمة والمثاقفة، مجلة البدر، المجلد 9، العدد 7، 2017، ص 210.

3- مجدي فارح: الترجمة بين إرهاصات المثاقفة ورهانات العولمة: قراءة في الشأن المستقبلي، مجلة الدراسات المستقبلية، المجلد 17، العدد 1، 2016، ص 7.

الاستيعاب الثقافي، التحول الثقافي والانصهار الثقافي، ويقتضي ذلك العبور عبر مراحل عديدة: الاصطدام، الضبط، الانصهار والدمج[1].

ولا يقتضي الأمر اجتياز كل هذه المحطات كاملة، إذ قد تتوقف حدود المثاقفة عند المرحلة الأولى التي تنشأ فيها علاقة نشوز بين الثقافتين، فيصبح انصهار عناصر إحداهما في الأخرى أمرا مستحيلا نتيجة المقاومة التي تلقاها. قد يدفع مثل هذا الوضع للتساؤل حول ما إذا كان هناك تأثير لثقافة على أخرى وهي ترفضها، والحال أن استمرار ثقافة ما في مقاومة المدّ الثقافي الذي يأتيها من بقية الثقافات يمثل بالفعل شكلا للمثاقفة و شكل عكسي، تتقوقع فيه الثقافة المقاومة على عناصرها وتقويها على الرغم من ضغط ما يمكن أن نسميه بلغة التسويق عناصر ثقافية منافسة ومغرية.

تجد وظيفة الترجمة نفسها في صلب المثاقفة، فانتقال العناصر الثقافية بين ثقافتين يتطلب بالأساس وجود وسيلة للتواصل الفعال الذي لا يقف عند حدود اللغة، فاستيعاب العناصر الثقافية الوافدة من ثقافة أخرى يستدعي فهمها ضمن بيئة المعنى التي نشأت فيها، وفهم أصولها ومغزاها الأصلي لإحلاله ضمن الثقافة الهدف بسلاسة ودقة. يشير رومان جاكوبسون إلى أن الترجمة قد يكون المطلوب منها أحيانا هو ترجمة الرموز، لا العلامات اللغوية فقط، ويسميها على هذا النحو ترجمة بين-سيميائية[2] intersemiotic translation، وفي هذا الشكل من الترجمة يكون من الصعب الاكتفاء بالبحث عن مرادفات للكلمات، بل يجب استحضار كل الخلفية الثقافية للرمز.

على هذا النحو يمكن القول بأنه لا مثاقفة بدون ترجمة، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة، إذ من غير الممكن أن يتم تناقل العناصر الثقافية بين ثقافتين من دون ترجمة حقيقية تدرك أعماق المعاني في الثقافة الأصلية، وتدرك المسالك اللازمة لزرع هذا المعنى في الثقافة الهدف. إن الترجمة –يقول إبراهيم بولحيان- هي "العمود الفقري في هذه العملية فلا بد للمترجم أن يستوعب الميكانيزمات المتحكمة في كل فعل ثقافي ليؤدي دوره بالشكل المرغوب ويسمح لذواتنا أن تلتقي بالآخر، مبددا كل العوائق التي يمكن أن تعرقل هذا التواصل الثقافي"[3].

---

[1]- إبراهيم أولحيان: مرجع سابق، ص 250.

2- محمد عمور: الترجمة الأدبية وإستراتيجيات المثاقفة، مجلة المدونة، المجلد 5، العدد 2، 2018، ص 459.

[3]- إبراهيم أولحيان: مرجع سابق، ص 250.

هكذا يفترض لترجمة أن تكون على المستوى النظري، ولكن عمليا وفي الواقع الثقافي المعقد في العالم الحالي الذي يشهد انفتاحا ثقافيا معولما، تثار الكثير من القضايا النقدية. هناك من يتحدث مثلا عن أثر سلبي وعكسي للترجمة، فعوض أن تعمل على تقارب الثقافات والحفاظ على سمة الاختلاف التي هي أصل أضحت الترجمة تعمل على عودة لعنة بابل المستلهمة من القصة التي أوردتها التوراة، بحيث لا أثر للمثاقفة بقدر ما أصبحت الترجمة ساحة للهيمنة.

3- الترجمة والتفكيك في سياق الخطابات الثقافية المعاصرة:

ناقشت الفلسفة التفكيكية التي دافع عنها نيتشه، فرويد، هيدغر، ديريدا، ليفيناس وجوليا كريستيفا عن الاختلاف بوصفه البوابة المعرفية التي يمكن من خلالها معرفة الآخر وفتح المنافذ أمام تلاقح المعارف الإنسانية بدل الانغلاق على الذات الثقافية ونفي الآخر مثلما اتسمت به تقاليد الميتافيزيقا الغربية منذ أفلاطون. اعتبر التفكيكيون الاختلاف الحقيقة الأسمى في الوجود، إننا مختلفون لا بين الثقافات فقط، بل داخل لغة واحدة، ففي كل فعل كلام يكون الاختلاف سببا ونتيجة، ويبقى الكلام والتلفظ دوما ففعلا مستمرا لبناء وهدم المعنى، ولا يستقر هذا المعنى مع تسلسل الكلام وإنما يبقى نظاما مفتوحا على الدوام.

تشكل هذه الفكرة الأساس لفهم ديريدا للترجمة، فإذا كان الحال هكذا للمتحدثين باللغة ذاتها، فإن الأمر يصبح أكثر تعقيدا أثناء فعل الترجمة، حيث يرتفع سقف الاختلاف عاليا وتصبح مهمة تقريب المعنى، أي الترجمة، مستحيلة أكثر، أو تصبح بالأحرى خيانة. ضمن أفق التفكيك، الذي يقصد به ديريدا، تقويض كل مسعى لإرساء ثنائيات مثلما كان يفعل الفكر الغربي من أفلاطون، يجب الانطلاق دوما من أن الاختلاف هو بنية أكثر مما هو مفهوم[1]، أي أنه حقيقة اجتماعية وفعل مركزي في الثقافة، وأنه ينشأ داخل اللغة بالأساس.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما يشهده العالم اليوم من انفتاح للثقافات على بعضها البعض، وذلك بفضل تطور تقنيات الاتصال وما أفرزته من مدّ عولمي، فإن مقولات ديريدا تصبح الأداة الأنسب لقراءة مثل هذا التحوّل. إن الذات الغربية المتمركزة على ذاتها، ولا ترى العالم إلا بمنظورها، ترمي بالآخر في غياهب النفي والإلغاء، وتنظر لثقافته دوما على أنها ثقافة متوحشة ومتخلفة. انطلق ديريدا في فلسفته التفكيكية من نقد إحدى أهم ثنائيات الميتافيزيقا الغربية،

1- عبد الله إبراهيم وآخرون: معرفة الآخر: مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1996، ص 120.

وهي ثنائية الأنا والآخر، فالآخر يوصف بأنه ضدا للأنا، فإذا كانت هذه الأخيرة تعني الحضور الحي الناتج عن صوت الوعي المعبّر، فإن الآخر خارجي، عارض ويهدد قيم الأنا[1].

بالإضافة إلى ديريدا، أعطت الدراسات ما بعد الكولونيالية دفعا قويا لفهم واقع الترجمة ضمن الخطابات الثقافية المتصارعة في العالم المعولم. بالنسبة لدوغلاس روبنسون، فإن إقامة علاقة بين الترجمة بوصفها عملية ميكانيكية وتقنية تتضمن التعامل مع جمل ونصوص من منطق الجودة، وبين الإمبراطورية بوصفها نظاما سياسيا وكتلة عسكرية تعمل على الإخضاع والغزو والاحتواء، فإن إقامة علاقة بينهما تبدو للوهلة الأولى أمرا غامضا وغير وارد.

غير أن روبنسون يسترسل في بيان وجود هذه العلاقة من خلال وصف الترجمة بأنها ذات خلفية إمبراطورية من البداية، حيث "كانت قناة لا غنى عنها للاحتلال الإمبراطوري، فالأمر لم يقتصر على احتياج الفاتحين الإمبراطوريين الأكيد إلى إيجاد طريقة فعالة للتواصل مع رعاياهم، بل كان عليهم أيضا أن يطوروا طرائق جديدة في إخضاعهم وتحويلهم إلى رعايا طيّعين ومتعاونين"[2]. وبمثل هذا الطرح، فإن روبنسون يقف في صف الكثير من الآراء التي تؤكد على الخلفية الإيديولوجية للترجمة، والتي تنزع عن الترجمة صفة "التكافؤ" التي ليست سوى وهمًا يعتقد به الأنصار التقليديون ذوو النظرة التقنية.

يستلهم روبنسون من تراث الدراسات ما بعد الكولونيالية بعض المفاهيم التي يراها مواتية لفهم علاقة الهيمنة بالإمبراطورية، فيستعير من أنطونيو غرامشي مفهوم الهيمنة، ومن لويس ألتوسير مفهومي التذويت والاستدعاء، وينقل روبنسون عن الكاتبة الهندية تيجاسويني نيرانجانا قولها: "كانت الهند الكولونيالية تدار بآليات ثقافية مهيمنة، فالهنود الذين تم تذويتهم بوصفهم رعايا شركة الهند الشرقية، وبريطانيا العظمى لاحقا، راحوا ينظرون إلى أنفسهم بعيون المستعمر: بوصفهم أطفالا مخنثين، لا عقلانيين، غامضين... إن تذويت المستعمر يعلمهم أن يخجلوا من ذاتيتهم الأصلية... إن الترجمات الأوروبية للنصوص الهندية والتي أعدت لجمهور غربي زودت الهندي المتعلم بسلسلة كاملة من الصور الاستشراقية"[3].

أما هومي بابا، فيبتعد عن تصورات جاك ديريدا ويناقش مشكلات الترجمة خارج ثنائيات اللغة الأصل، ويؤسس لمفهوم "أجنبية الترجمة الثقافية". في رأي بابا، فإن الهجنة هي سمة الثقافة

1- ميشيل رايان: التفكيك: تمهيد، نقد وسياسة، في: ميشيل رايان وآخرون: مدخل إلى التفكيك، ترجمة: حسين نايل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2008، ص 25.

2- دوغلاس روبنسون: الترجمة والإمبراطورية، ترجمة: ثائر الديب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2005، ص 24.

3- دوغلاس روبنسون: المرجع نفسه، ص ص 40-41.

الحديثة والخلاص لفهمها، ولا يمكن بأي حال من الأحوال الاستماتة في الدفاع عن أسطورة الأصل، فيقول: "تنزع الترجمة الثقافية القداسة عن افتراضات التفوق الثقافي التي تبدو بديهية وليست محلّ شك، وهي إذ تفعل ذلك، إنما تقتضي خصوصية سياقية وتمايزا تاريخيا ضمن مواقع الأقلية"[1].

يتشارك بابا مع ديريدا وغيره فكرة أن الترجمة يجب أن تخضع لسياسة وإستراتيجية معينة لكي تتمكن من تجاوز كل مآزقها. إن الرؤية التفكيكية للترجمة تسقط فكرة المؤلف-الكاتب وتحولها إلى مجرد وظيفة، وعوض أن تبحث في مقاصده من تسمية الأشياء على نحو ما فإنها تسائل اللغة ذاتها وتستغور تلك الهوة الموجودة بين الدال والمدلول. أما أغلب أنصار الدراسات ما بعد الكولونيالية، فإن السياسة التي يقترحونها مختزلة في عنوان مقال الكاتبة الهندية الأمريكية غياتري سبيفاك "هل يستطيع التابع أن يتكلم؟".

قراءات إضافية:

- ألبرت نيوبرت وغريغوري شريف: الترجمة وعلوم النص، ترجمة: محي الدين حميدي، منشورات جامعة الملك سعود، الرياض، 2008.
- دوغلاس روبنسون: الترجمة والإمبراطورية، ترجمة: ثائر الديب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2005.
- غاياتري سبيفاك: هل يستطيع التابع أن يتكلم، ترجمة: خالد حافظي، صفحة 7 للنشر والتوزيع، الرياض، 2020.
- محمد عناني: نظرية الترجمة الحديثة، الشكة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، 2003.
- هومي بابا: موقع الثقافة، ترجمة: ثائر أديب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004.

1- هومي بابا: موقع الثقافة، ترجمة: ثائر أديب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ص 397.